

الفصل العشرون

العباسيون

من عهد القائم إلى المستظهر

٤٥٥ — ١٠٦٣ — ١١١٠ م

بدأ الحروب الصليبية

الخليفة القائم بأمر الله — طغرل بك — الحروب مع الدولة البيزنطية
وفاة طوغرل — تولية ألب أرسلان — غزو جيوش الفرنج — موقعة
ملازكرد — انهزام الجيوش الصليبية — أسر رومانوس — معاهدة
الصلح — مقتل رومانوس — وفاة ألب أرسلان — تولية الملك
صالح — وفاة القائم — مبايعة المقتدى بأمر الله — عهد الملكشاه
الزاهر — الحشاشون أو الباطنيون — حسن الصباح — اغتيال نظام
الملك — وفاة الملكشاه — الخلاف بين أولاده — وفاة الخليفة
المقتدى — تولية المستظهر بالله — بدء الحروب الصليبية — حصار
أنطاكية — الاستيلاء عليها — مذبحة المسلمين — تدمير معرة
النعمان — مذبحة بيت المقدس — نهب طرابلس

أضحى السلاجقة بزعامه « طوغرل » الشعب المسيطر على آسيا ؛ ومن المعلوم
أن ذلك الشعب ينتمي إلى سلالة تركية ، ويعرف باسم زعيمه الذي هاجره إلى
ما وراء السند ومن ثم إلى خراسان . ومع أن الأتراك والمغول ينتسبان إلى أصل
واحد إلا أنهما يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافا بينا ؛ إذ بينما كان المغول
يسكنون أقصى حدود آسيا الشرقية في حالة شبه بربرية كانت القبائل الغربية
الضاربة في المغرب تتأثر أیما تأثير باحتكاكها بمدنية العرب . وكان السلاجقة
الذين يعتبرون أكثر هؤلاء القبائل تمدنا قد اعتنقوا الدين الإسلامي بحجاسة

٤٥٥ — ١٠٦٣ — ١١١٠ م

وإخلاص شديدين وأصبحوا حماة المغاوير . وبينما كان العرب منصرفين إلى تمديد الفنون والآداب التي تدعو إليها حياة السلم ويتمهدونها برعايتهم ، كان السلاجقة يسمون إلى نشر الإسلام وبسط نفوذه ؛ وقد بلغوا ذروة مجدهم في النصف الأخير من القرن الحادى عشر على أثر خضوعهم لسلطان أعلى واحد توحدت بفضلها كلمة رؤساء الإقطاعيات وأعلنوا له خضوعهم وإخلاصهم .

وقد انتهز الروم فرصة ضعف الخلافة ووهنها وحاولوا نشر سلطانهم على آسيا فتطورت الغزوات التي كانوا يشنونها في العصور السابقة بقيادة بعض الملوك الأشداء ، واستحالت الآن إلى حملات عسكرية لاحتلال بلاد المسلمين ، وظلوا يوغلون في التقدم حتى توسعت دولتهم في القرن العاشر الميلادى وأصبحت تمتد إلى مدينة أنطاكية جنوبا وحدود أرمينية شرقا .

وفاة طغرل بك
وتولية ألب
أرسلان

وفي سنة ١٠٦٠ م هب « طغرل بك » معلناً حرباً شعواء على الدولة البيزنطية واكتسح كبيدوكيا وأفروجيا ، غير أن احتلال هاتين المنطقتين احتلالاً دائماً لم يتم إلا بفضل خلفه « ألب أرسلان » ، الذي تولى رئاسة السلجوقيين بعد موت عمه الذي لم يعقب ولداً ذكرأ ، كما أنهم عليه الخليفة بلقب السلطان ؛ ويصفه ابن الأثير : « بأنه بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة إلى بره بالرعية وإرادته خيرهم » ، وكان فوق ذلك فارساً شجاعاً . وبعد انتصاره على جيش الروم واستيلائه نهائياً على « الكرج » « وأرمينية » عاد إلى « خيوة » في أذربيجان ، ولكنه لم يلبث أن أنقذه الأخبار بأن دايوكنيس رومانوس ^(١) — الذى اعتلى العرش بفضل الإمبراطورة أديسيا بعد أن كاد ينفذ فيه حكم الإعدام — قد توغل في آسيا على رأس جيش كبير يزيد على ٢٠٠ ألف جندي لاحتلال بغداد ، عاقداً للنية على الاستيلاء على آسيا الغربية برمتها وضمها إلى الدولة البيزنطية ، وكانت هذه الحملة أعظم الحملات التي زحفت حتى الآن من القسطنطينية للغزو والتخريب .

— ٤٥٥ —
٥٥٠٣

وتقول لنا الرواية إنه كلما تقدم الروم أمعن المسلمون في الفرار حتى وصلوا إلى « ملاز كرد » أحد الحصون المهمة الواقعة في منتصف الطريق بين مدينتي أرضروم ووان ؛ فلم يلبث السلطان أن أسرع إلى نجدهم على رأس قوة كبيرة ، وزحف بها على الروم ، فدارت معركة رائعة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون بالرغم من قلة عددهم ، وأسروا ملك الروم وقواده ، وحملوه إلى معسكر السلطان ، فعاملهم معاملة مرضية ؛ وبعد مفاوضات طويلة دارت بينه وبين أرمانوس ، تم الصلح بينهما على أن يزوج الثاني بناته من أولاد الأول ، ويفتدى نفسه وجميع الأسرى بمليون دينار ، ويدفع جزية سنوية قدرها ٣٦ ألف قطعة ذهبية . ولما فك سراحهم رجعوا أدراجهم تحف بهم قوة من المسلمين إلى الحدود . غير أن أرمانوس علم في طريقه إلى القسطنطينية أن شعبه العديم الوفاء قدخله فاستنجد بالسلطان ؛ ولكن الروم كانوا قد قبضوا عليه قبل أن تصله النجدة وقاتلوه بعد أن سملوا عينيه .

ملاز كرد

١٠٦٣ —
١١١٠ م

وعلى أثر الانتصارات الباهرة التي أحرزها السلطان في موقعة « ملاز كرد » وهب ابن عمه سليمان بن قطلمش ولاية آسيا الصغرى ، وكان جنديا شجاعا حكيما متدبرا في أمره ، فوسع ملكه وبسط سلطانه إلى هلسبونت « بحر مرمره » شمالا وسواحل البحر الأبيض المتوسط غربا ، وفرض على ملوك الروم الجزية يدفعونها عن يد وهم صاغرون ، ثم اختار مدينة نيقية إحدى مدن الأناضول لتكون عاصمة ملكه ، ولما استولى عليها الصليبيون انتقل إلى قونية ، وظلت آسيا الصغرى في قبضة أحفاده حتى تغلب عليهم التتر ؛ ويعرف هذا الفرع السلجوقي بسلاجقة الروم^(١) ، وقد تركوا آثارا جمة تنهض دليلا على مبلغ مدينتهم وقوة سلطانهم .

٨٤٦٥
١٠٧٢ م

توفي ألب أرسلان متأثرا بجرح الخنجر الذي طعنه به أحد الثائرين ، وكانت

وفاة ألب
أرسلان

(١) كان علاء الدين الملك الرابع عشر من ملوك تلك الأسرة صديق وتلميذ الشاعر الصوفي المشهور مولانا جلال الدين الرومي .

أيامه أيام تقدم وازدهار، وكان وزيره « الخوجه حسن » الملقب بنظام الملك الذى أسند إليه مهمة تدبير الأمور المدنية بأسرها . وقد خلف « ألب أرسلان » ابنه ملكشاه ولقب بجلال الدولة . وتوفى الخليفة « القائم » بعد ذلك بثلاث سنوات خلفه حفيده أبو القاسم عبد الله الملقب « بالمقتدى بأمر الله » ، ولم يكن قد ناهز بعد التاسعة عشرة ، وكان من خيرة بنى العباس ، قوى النفس عظيم الهمة ، فأمر بإقصاء المغنيات والفسادات ، وأصلح كثيراً من الأخلاق العامة ، وعمل على رفع مستواها بالرغم من انتشار الفساد ؛ بيد أن أصحاب المذهب الحنبلى المتعصبين خلقوا له عدة متاعب ، فكثيراً ما كان ينجم عن الشجار الذى كان يقع بينهم وبين الأشعرية خسائر فادحة فى المال والأرواح ، ولكن اهتمام العالم الإسلامى فى ذلك الحين لم يكن متجهاً إلى الخليفة ولا إلى بلاطه ، بل كان منصرفاً إلى السلطان الأكبر حاكم آسيا .

كانت أوائل أيام « ملكشاه » مضطربة بسبب الفتن الداخلية التى كانت تنشب من حين لآخر ، وقد خرج أخو السلطان نفسه على أخيه ذات مرة ، وليس أدل على شرف نفس « ملكشاه » ونبل عاطفته من ذلك الحادث الذى جرى له فى طوس ، وهو أنه بعد أن صلى فى مشهد الإمام على الرضا قل لوزيريه : إنه ابتهل إلى الله فى صلاته أن ينصر أخاه عليه إن كان هو أحق منه بحكم المسلمين ؛ وعلى الجملة كان « ملكشاه » سلطاناً عادلاً ذا فضل وإنصاف ، شجاعاً مقداماً صائب الرأى والتدبير ، لم تشب أخلاقه أية شائبة قط ، وظل محتفظاً بمخدومات وزيره الخوجه حسن نظام الملك الذى قلده جميع الأمور ولقبه أتاك . ولعل « نظام الملك » يعد أقدر وزراء الإسلام طراً بعد يحيى البرمكى ، وليس أدل على عبقريته الفذة وكفايته من الأعمال الجسام التى قام بها فى إدارة شؤون الدولة ، فانتشر الأمن فى كافة أنحاء البلاد الممتدة من حدود الصين إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً ، ومن كورجيا شمالاً إلى بلاد اليمن جنوباً ، كما قام

تولية ملكشاه
٨٤٦٦
م ١٠٧٣

عهد ملكشاه

بائنتى عشرة جولة فى طول البلاد وعرضها ليتعرف أحوال رعيته ، ويقف على احتياجاتها بنفسه ؛ وأسس منازل ومخافر على طول الطرق التجارية وطرق الحجيج ، شأنه فى ذلك شأن الرشيد والمأمون ؛ وكان بجانب ذلك مولعاً بالقنص والصيد ، ولكنه لم ينس قط فى أوقات لهوه أن يحسن إلى الفقراء والفلاحين الذين كان يصطاد فى مزارعهم وحقولهم أو يمر من ضياعهم . وكان عهد ملكشاه يقاس فى عظمته ونخامته بأزهر عهود الدولة الرومانية أو العربية حيث ازدهرت التجارة والصناعة ، وزهت الآداب والفنون ، وتقدمت اللغة الفارسية تقدماً لم يسبق له مثيل ، وجمت المدن بالكليات^(١) والجوامع ، وأنشئت المستشفيات والقصور وشقت الطرق ، وحفرت الترعى فى كافة الأمصار والبلدان ، تسهيلاً للتجارة والزراعة .

إصلاح التقويم

كذلك كان للتقويم الذى أمر بإصلاحه فائدة عظيمة للعالم أجمع ، إذ تشكلت لجنة من العلماء برئاسة الفلكي المشهور « عمر الخيام » للقيام بهذا العمل المجيد . ويقال إنهم توصلوا إلى إصلاح الأخطاء بطريقة احتساب الوقت . ويقول « غييون » بهذا الصدد : إن تقويمهم فاق تقويم جوليان وقارب التقويم « الغريغورى » ، كما قرروا تعيين رأس السنة فى أول نقطة من دخول الشمس برج الحمل بدلاً من توسط مروورها ببرج الحوت ، وقد عرفت بالسنة الجلالية ، نسبة للسلطان جلال الدين .

— ٤٥٥ —
٨٥٥٣

وفى ذلك الحين كان سليمان حاكم الروم السلجوقى قد بسط سلطانه على حدود « ريوط » ، واستولى على عدة جزر ، واعترف بسيادته كل من « نفقور » الذى اعتلى عرش الدولة البيزنطية بعد خلع ابن قسطنطين و « الكسيوس كوستيوس » ، وطفقا يدفعان له الجزية . وفى سنة ٤٦٧ هـ طرد « سليمان شاه » الروم من أنطاكية وأعاد احتلالها باسم السلطان ، غير أنهم ثأروا بعد سبع سنوات

للهمزية التي لحقت بهم وغزوا جزيرة صقلية . وفي عام ١٠٦١ م غزا النورمنديون تلك الجزيرة ، وقد شجعتهم الفتن التي كانت تعصف ريمحا بالدولة الإسلامية على التغفل ، فواصلوا حروبهم حتى عام ١٠٩١ م حيث استولى عليها نهائيا كَونَت نورمانى اسمه « روجر » بعد معارك شديدة استمرت مدة غير يسيرة .

وفي أواخر أيام « ملكشاه » ظهرت فئة نهلسية تسمى بالحشاشين^(١-٢) في وهاد « مازندران » التي سبق أن اعتصم بها بابك الخرمى وأتباعه ؛ ومؤسس هذه الجمعية الدموية — التي أسست على غرارها فيما بعد الجمعيات السرية في آسيا وأوربا — هو الحسن بن الصباح أحد أقران نظام الملك في المدرسة وطلب العلم ؛ ويقال إنه لما قعدت به المهمة عن الوصول إلى غايته في مراتب الدولة السلجوقية آلى على نفسه أن يعمل على تفويض دعائم السلطة الشرعية بالسم والحديد ، فالتحق بالخليفة الفاطمى فى مصر ، وأصبح من أتباعه المقرين ، وظل به حتى عينه رسولا إلى المشرق ، وفوض إليه نشر الدعوة الإسماعيلية ، وكان يتألف هذا المذهب إلى ذلك الحين من :

- (١) رؤساء أو دعاة يتدرجون فى مراتب العقيدة السرية .
- (٢) أتباع أو رفقاء يلقنون تدريجيا مبادئها السرية ، ويتألف منهم أغلبيتها الساحقة .

رأى الحسن أنه لا يستطيع تحقيق مراميه ، وبلوغ أهدافه بالنشاط والاطمئنان المطلوبين إلا بإنشاء مرتبة ثالثة يكل إلى أفرادها أمر تنفيذ أغراض الجمعية ، فيغدون أداة صماء متهمسين فى أيدى رؤسائهم يوجهونهم كيف شاءوا دون أن يسألوا سؤالا أو يحسبوا حسابا لمواقب أعمالهم ، ويدعون « بالفدائيين » وكانوا يرتكبون أعمال الفتك والاعتقال وفقاً لأوامر الرئيس الأعلى الذى كان

(١) يعرفون بالباطنيين . (المعرب)

(٢) إن كلمة الحشاشين إما مشتقة من « الحشى » أو « الحشاشين » .

تأليف جماعة
الحشاشين
(الباطنيين)

حسن الصباح

الإسماعيلية
— ١٠٦٣
م ١١١٠

شيخ الجبل

يسمى « بسيدنا » ، ويعرف عند العامة باسم شيخ الجبل ؛ وكان معظم أتباعه من هؤلاء الفدائيين^(١).

مراتب الجمعية

وكان يليهم مباشرة في المرتبة فئة داعى الدعاة ، وهم ثلاثة يرأسون فروع الجمعية في الجبل وكوهستان والشام ؛ ثم يأتى بعدهم في المرتبة منصب الداعى الذى كان من شأنه بث الدعوة وقبول المدعوين ، وهو لقب يمنح لمن سبق أن تدرج في مراتب الجمعية السرية ، ويليه منصب الرفيق ثم الفدائى ؛ أما مرتبة اللاصق فكانت المرحلة الأولى للمدعوين الذين كان يتطلب منهم مراعاة أدق المراسيم الدينية الإسلامية ؛ أما الأتباع المخلصون فكانوا ملزمين بالطاعة العمياء . وكان الداعى يخدم الجمعية بفكره ، ويرشد الفدائيين إلى ما يجب عليهم عمله تنفيذاً لأوامر « شيخ الجبل » ، وقد أطلق المسلمون على هؤلاء النهلستيين اسم الملاحدة . وفى سنة ٨٤٣ م استولى الحسن بن الصباح على قلعة آلاموت « عش النسر » المنيعة في جبال مازندران ، ومنها شرع يدير حركته الهدامة .

— ٤٠٠
٨٥٠٣

ولأجل القضاء على هذه الدعوة الإلحادية والجمعية الهدامة سير « ملكشاه » عليهم حملتين ، ولكن النية عاجلته قبل استئصال شأفتهم . وفى سنة ١٠٩١ اغتال أحد أتباع الحسن بن الصباح « نظام الملك » الذى يصفه ابن الأثير^(٢) : « بأنه كان محبوباً عند الخاصة والعامة مشهوراً بحسن تديره وجوده » . وكان قد أعقب ثلاثة أولاد هم : مؤيد الملك ، ونغر الملك ، وعمر الملك ، الذين استوزرهم أخلاف الملكشاه . وقد عاد السلطان إلى بغداد بعد موت وزيره العظيم . وفى ذلك الحين كاد يتم زواج ملكشاه من ابنة كومينوس^(٣) بيد أن وفاة الأول حال دون تحقيق هذه الأمنية التى لوتمت لأفادت الشرق والغرب معاً بتوطيد

اغتيال نظام
الملك

وفاة الملكشاه
١٥ شوال
٨٤٨٥
١٨ تشرين
الثاني ١٠٩٢ م

(١) يوجد ثمة تشابه غريب بين هذه الجمعية السرية للاغتيال وشتى الجمعيات التى نشأت في أوروبا فيما بعد .

(٢) تاريخ أمابكة الموصل .

(٣) يعتقد غيبون اعتقاداً جازماً أنها « آنى كومينا » نفسها .

العلاقات وتوثيق الصلات بينهما . وقد توفي ملكشاه وهو ابن ٣٩ سنة بعد أن حكم البلاد ٢١ سنة ، وبموته اضمحلت عظمة الدولة السلجوقية وتفككت أواصرها . وكانت أرملة ملكشاه « ترکان خاتون الجلالية » قد طلبت إلى الخليفة أن يقر ابنها محموداً الذي كان لا يزال طفلاً في مكان أبيه ، فلبى طلبها ولقبه « بناصر الدنيا والدين » ، ولكن الطفل الصغير لم يتمتع بالملك طويلاً ، إذ استولى على السلطة أخوه الأكبر « برکیاروق »^(١) وتلقب « بركن الدولة » . غير أنه لم يمض سوى قليل حتى قام أخوه الثالث مطالباً بعرش السلطنة ، فنشبت فتن راثمة بين الأخوين برکیاروق ومحمود حول الاستيلاء على العراق وخراسان ، ففتت هذه الحروب في عضد السلاجقة ، وأضعفت قوتهم ، وهيأت الفرصة للحسن بن الصباح لتنفيذ خططه . وفي هذه التربة الدموية الحصيبة التي كانت تنصف بها ريح البغضاء والتحاسد نبتت جذور الاغتيال ، وازدهرت أفنان القتل بالسهم والسيف ، وهكذا استولى الحشاشون « الباطنيون » تدريجياً على عدة قلاع منيعة في البقاع الجبلية في شمالي فارس والعراق والشام ، وقضوا بالخناجر على حياة أعظم رجال المسلمين شأنًا .

وفي عام ٤٨٧ توفي المقتدى وخلفه ابنه أبو العباس أحمد « المستظهر بالله » وعمره ست عشرة سنة ؛ وكان كما يصفه ابن الأثير : « لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ، ويفعل الخير ، ويسارع إلى أعمال البر والثواب ، مشكور المساعي » . ولو أنه جاء في عصر أسعد حظاً لترك على الأرجح أثراً بالغاً في التاريخ ؛ بيد أن المصادر التي كانت لديه لم تكن لتمكنه من القيام بدور خطير ، إذ كانت تعصف في تلك الأثناء في آسيا ريح التعصب الوحشي الذي يسمى في التاريخ المسيحي « بالحروب المقدسة » . ولما كنا نلاحظ في الكتب التاريخية التي دمجها براع المؤلفين الأوربيين أنهم يحملون نزعة مغالبة ، وأنهم يرون في الفارس الذي

(١) ويلفظ أيضاً « بك ياروق » أي البك اللامع .

كان ينضوى تحت لواء تلك الحملات بطلا صنديداً ، ومثلاً أعلى للشهامة والفخار رأينا من اللازم علينا إحقاقاً للحق أن نمزق ذلك النقاب البراق الذى أسدّ لوه على هذه الصورة المشوهة ، لنبين فى الصفحات القليلة من هذا الكتاب هول تلك الحروب ، ووحشية طباع الذين اشتركوا فيها ، والدمار الذى جلبوه على آسيا الغربية . ومما لاشك فيه أن الحروب الصليبية — كما يصفها كاتب مبدع — « كانت أشد الحروب خبالاً ، إذ تدفقت جموع المسيحيين على البلاد الإسلامية فى حملات متوالية قرابة ثلاثة قرون حتى يئست النفوس ، ووهنت العزائم ، وتضعفت الهمم من جراء الفشل المريع والخسائر المتوالية ؛ ففقدت أوربا زهرة شبابها ، ونضب فيها معين المال حتى غدا الإفلاس المالى يقرع أبوابها ، والمجاعات تهددها ، والخراب العاجل يقوض أركانها ، فهلك الملايين فى الوقائع الحربية ، وفكت الأوباء والمجاعات رجال الصليب وحماة المسيحية ، الذين ارتكبوا أروع الجرائم التى يعجز عن وصفها الخيال » .

حالة المسيحيين
فى البلاد
الإسلامية

كان المسيحيون منذ تأسيس الدولة الإسلامية مضطهدين بفيض من الكرم والتسامح ، فكانوا يؤدون مراسيمهم الدينية بالحرية التامة ، ويتمتعون بحقوقهم المدنية كاملة غير منقوصة ، ويتنقلون فى أنحاء الإمبراطورية حسبما يشاءون وأينما يبتغون ، ويتكاثرون مع أمراء الدول الأجنبية دون لوم أو تريب ، كما كان لهم الحق فى تملك الضياع والأرضين ؛ وعلى الجملة كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون . أما مناصب الدولة فكانت مفتوحة أبوابها أمامهم دون تفرقة بينهم وبين المسلمين باستثناء أيام الحكم المتعصبين ، وكانت الكنائس والأديرة المسيحية قائمة فى كل مكان ، وكان الحجاج المسيحيون يؤمون « القدس » من كل حذب وصوب بسلام آمنين ؛ ولم يتيسر لهم ذلك إلا بفضل احتلال العرب لتلك البلاد ، إذ كان هدف العرب توطيد الأمن ومنع نشوب المشاجرة بين مختلف الطوائف المسيحية المتباغضة ، التى لو تركت وشأنها لفتك بعضها ببعض .

١٠٦٣ —
١١١٠

وفي بيت المقدس الذي يحترمه معتنقو الديانتين الإسلامية والمسيحية خصص
حتى كامل لسكنى البطريق والسكينة . كذلك لما انتقلت فلسطين والشام إلى
أيدي الفاطميين عام ٩٦٩ م استفاد المسيحيون فائدة تذكر ، وذلك أن ملوك
مصر شملوا الطائفة المسيحية بعطفهم ورعايتهم وشجعوا تجارهم ، غير أن هذا
التسامح الرائع لم يكن ليخفف من غلواء هؤلاء المهوسين الذين كانوا ينظرون
إلى بقاء المسلمين في « القدس » بعين البغض والاستنكار .

كان الحجاج المسيحيون يزورون الأرض المقدسة ، ويلاقون فيها من
العرب ضروب الرعاية والكرم ، كما كانوا يتمتعون بالسخاء العربي المشهور ،
ولكنهم كانوا بالرغم من كل ذلك يعودون إلى بلادهم وقد امتلأت قلوبهم
حسداً وحقداً . فما كاد ينتهي القرن العاشر حتى اعتقد المسيحيون اعتقاداً
جازماً أن ساعة الخلاص قد أوفت ، وأن العصر الألفي السعيد قد حل أو كاد ؛
وبهذا الاعتقاد طفت جموع المهاجرين تندفق من العالم اللاتيني على الأرض
المقدسة ، وفي القرن الحادي عشر ازداد عددهم زيادة هائلة .

وفي ذلك الحين كان حكم فلسطين قد انتقل إلى أسرة «أورتك» التركمانية
التي لم تكن لتدين بالولاء للسلطان السلجوقي ولا لنائبه في الشام ؛ وكان هؤلاء
الحكام يجهلون الحماس الذي كان يتأجج في قلوب الحجاج الأجانب ، فلم يعاملهم
بالتسامح الذي كان يعاملهم به الحكام الأولون . لذلك كان هؤلاء الحجاج
المتعصبون إذا ما عادوا إلى أوطانهم شوهاوا الحقيقة وشنعوا بالمسلمين ، فيثيرون
بذلك حفيظة إخوانهم وأبناء جنسهم ، حتى عقد البابا «أربان» الثاني أخيراً
مجلساً في بلاسنتيا في آذار سنة ١٠٩٥ ، ومجلساً آخر في كليرمنت في تشرين
الثاني ، وخطب معلناً ضرورة إنقاذ ضريح المسيح من أيدي الكفار ! كما أعلن
غفران ذنوب الخاطئين الذين يلتحقون بهذا الجهاد الديني ، ووعد الذين يموتون
في سبيل هذه الحرب جنات الخلد . غير أن الباعث الحقيقي لتلك الحروب

مجلساً بلاسنتيا
وكليرمنت في
في آذار وتشرين
الثاني ١٠٩٥

الصليبية الدامية كان في الواقع هو الهوس الديني المزوج بأغراض أخرى كالليل إلى تأسيس ممالك جديدة ، والحصول على ثروات طائلة ، والرغبة الملحة التي سرت في أعماق النفوس الوضيعة في احتساء الأنبذة الشرقية ، والتمتع بفتنة الكرجيات ؛ وهكذا تضافرت عوامل شتى من البخل والطموح والشهوة مع الروح الدينية التي كانت تجيش بها صدور المتعصبين على خلق هاته الحروب . ويقول « هالام Halam » إنهم تذرعو بكل وسيلة لنشر هذا الجنون الوبائي وكان الجندي في خلال الحملات الصليبية معفيا من القانون الخاص باستيفاء الديون والضرائب ، كذلك كانت الكنيسة تحميه من العقاب وتضمن له النعيم الأبدى ، « ولم يكن ليشك قط أى إنسان في أن الذى كان يلاقى حتفه في ميدان القتال كان يدخل في حظيرة الشهداء والأبطال » .

٨٥٠٣-٤٥٥

وقد لاقى أول عصابة وعلى رأسها « وولتر المفلس » حتفها على أيدي البلغار المسيحيين ، فقاد بطرس الناسك الحملة الثانية وكان عددها ٤٠ ألف من رجال ونساء وأطفال من مختلف الأجناس واللغات ؛ ولما وصلوا إلى « مالفيل » ثأروا لإخوانهم أفراد الحملة الأولى ، فانتفضوا على المدينة وذبحوا سبعة آلاف من سكانها ، واستسلموا إلى شتى أنواع الموبقات والمفاسد ، فأصبحت المجر وبلغاريا أرضاً يباباً أمام جموع بطرس الناسك ؛ ولما وصلوا إلى القسطنطينية أراد الإمبراطور الكسيوس أن يتخلص منهم ، فنقلهم عبر البوسفور دون أن يسمح لأحد منهم بالإقامة في المدينة ولو إلى حين . وهناك في آسيا شرعوا يرتكبون أشنع الفظائع التي تفوق حد الوصف ؛ ويقول الميسو « Michaud » : « إن الصليبيين ارتكبوا جرائم وفظائع جمعات الطبيعة تهتز خوفاً وفرعاً من هولها ؛ كذلك كانوا يقتلون الأطفال في أحضان أمهاتهم وينثرون أشلاءهم في الهواء ، كما نقلوا فظائعهم معهم حتى أسوار نيس ، غير أن الساطان زحف عليهم بخمسة عشر ألف مقاتل ، فهزمهم هزيمة رائدة . وعلى أثر هذه الواقعة اعتنق

حملة بطرس
الناسك سنة
١٠٩٦ م

ريجينالد وجماعة من أصحابه الديانة الإسلامية ، أما البقية الباقية فقد أيدت على بكرة أيها » .

وكانت الموجة الثالثة تتألف من « أخط الطبقات وأجهلها ^(١) » بقيادة « هودسكال » أحد الرهبان الألمان . وكان هؤلاء يمزجون فكرة التضحية بالتحرر من قيود الأخلاق ، والتردى في الدعارة ومقاورة الخير . ويقول المسيو ميشو : « إنهم انهمكوا في الدعارة ، ونسوا القسطنطينية وبيت المقدس ، وراحوا يمثلون مناظر صاخبة من هتك الأعراس إلى النهب والقتل ، وكانت جميع هذه الفظائع تترك آثاراً فاضحة تدل على فعالهم أينما رحلوا ؛ فثارت أهل الجرفى وجههم ، وأصبحت سهول البلغار مليئة بعظام الصليبيين ، ولم ينج من أتباع « هودسكال » إلا نفر قليل » . أما العاصفة الرابعة فقد هبت من إنجلترا وفرنسا وفلاندرس واللورين ، ويسميه المستر ميلس « عاصفة أخرى من المتوحشين البائسين » ، فانقضوا على اليهود إنقضا صواعق — إذ لم يكن ثمة أتركة يحمونهم من مضطهديهم — وذبحوا الألوف منهم في كولونيا ، والمدن الأخرى على شواطئ الرين وموسيل ، ويقال إنهم قتلوا سبعة آلاف دفعة واحدة في مدينة ميانس ؛ ثم واصلوا زحفهم إلى الجنوب يعيشون فساداً في طريقهم ^(٢) » « بيد أن الجيش المجرى قاومهم في مدينة ميمسبرغ ، وأعمل السيف في رقابهم » .

وفي السنة التالية ألف أمراء أوروبا الإقطاعيون حملة منظمة ، وساروا على رأسها إلى الشرق يعيشون في البلاد الأوربية فساداً ، ويرتكبون نفس الشناعات التي ارتكبتها إخوانهم من قبل ؛ ثم وصلوا بقيادة « كودفرى » إلى القسطنطينية ، فبذل الإمبراطور الكسيوس حذاً عظيماً في إقصائهم عن المدينة ، ونقلهم إلى آسيا . وفي شهر مايس سنة ١٠٩٧ زحف سبعمائة ألف مقاتل على سهول نيقية ،

(١) ادوارد غيبون .

(٢) ملز .

وهي قوة كافية لاكتساح أكبر جيش يستطيع السلجوقيون حشده في الميدان ، ولم يلبث هؤلاء المغيرون أن حاصروا مدينة نيقية عاصمة السلطان ، وهددوا بتدميرها ، غير أن الإمبراطور الكسيوس أقنع ملك السلجوقيين أن يسلمه المدينة لكي ينقذها من شرهم ، وعندما شاهد الصليبيون علم « الكسيوس » يخفق على القلعة تملكهم نوبة عصبية شديدة ، وكادوا يفتكون بأهلها لولا تدخل « الكسيوس » الذي تمكن بدهائه من إنقاذ المدينة وإقناعهم بالعدول عما اعتزموا عليه ؛ فساروا من نيقية صوب أنطاكية يعيشون في البلاد التي يمرون بها فساداً ونهباً ، ولما انتهوا إليها ضيقوا عليها الحصار حتى أجبروها على التسليم بعد تسعة أشهر ذاقوا في خلالها ويلات الجوع ، والتجأوا حتى إلى أكل اللحوم البشرية ، ويقول المستر ميلز : « إن جنود الصليب كانوا ينبشون القبور ، ويأكلون اللحوم البشرية سرّاً »^(١).

حصار أنطاكية
تشرين الأول
١٠٩٦ —
حزيران ١٠٩٨

وعلاوة على هذه الفظائع المروعة كان الصليبيون يجدون لذة — لاتعدلها غير لذة الجرائم الأخرى — في تشويه جثث الموتى ، إذ حينما فتحوا أنطاكية ذبحوا ألفين من الأتراك وعرضوا بعضها كأنصاب لذكري انتصارهم المشؤوم ، كما طعنوا آخرين بالرماح حول معسكرهم . ويروي لنا الرواة أن الصليبيين نبشوا في حادثة أخرى قبور المسلمين ، وقطعوا رؤوس الجثث ، وعرضوا منها ألفاً وخمسمائة بمرأى من السكان المروعين . ويقول المسيو ميشو^(٢) : « إن الصليبيين ألقوا القبض على ابن أمير من أمراء الجيش السلجوقي في أنطاكية ، وحاولوا إرغام أسرته على تسليم المدينة فداء ابنهم من الأسر ، ولما أبوا تلبية طلبهم ساموا الشاب صنوف العذاب ثلاثين يوماً ، ثم حملوه أخيراً إلى أسوار المدينة حيث ذبحوه بمرأى ومسمع من والديه الولهانين وسكان المدينة المروعين » .

(١) يقول فون سيبيل وملز وكتاب آخرون إن الصليبيين وبالأخص الخدم كانوا يأكلون اللحوم البشرية علناً .

(٢) الجزء الأول ص ٤٦٢ .

بدهى أن الحرب غالباً ما يصحبها الانتقام في الملمات البهيمية ، ولكن
الغزاة الصليبيين ألغوا جبل شهواتهم على غاربها من غير وازع أورادع . ويقول
أحد المؤرخين المشهورين : « قل أن نجد في تاريخ الحروب مثل هذه الدعارات
التي ارتكبت في حملات الصليبيين ، ويقول أيضاً : « إذا بحثنا في تفاصيل تلك
الوقائع رأينا أن رذائل بابل وآثامها قد انتشرت بين منقذى جبل صيون » .

فشل المسلمون في جميع المحاولات التي بذلوها لإنقاذ أنطاكية ، نظراً لقلة
مهارة القائد السلجوقي « كربوغا » الذي أساء معاملة أسراء جيشه فسقطت
المدينة ؛ ولربما يعزى سقوطها إلى خيانة أحد حراس الأبراج ، وهو أرمنى اسمه
« فيروز » ، ويسميه العرب بهروز ؛ ويقال إنه أدلى الحبال بالليل من على الأسوار
فتسلق عليها الصليبيون ، واستولوا على بعض الاستحكامات بعد أن ذبحوا
حراسها ، ثم فتحوا أبوابها وتدققوا وهم يهللون « هكذا أراد الله » (Dieu La
Vent) ؛ وشرع هؤلاء المتوحشون اللاتينيون يذبحون السكان دون أن يراعوا
حرمة الشيخوخة وضعف النساء وعجز الأطفال ، فاتهمكوا حرمة المنازل ، وكان
منظر الجوامع يزيدهم وحشية على وحشيتهم ، فقوضوا القصور المنيفة ، والأكواخ
الحقيرة ، وتركوها ركاما يبابا ، كما سالت الدماء البشرية في الميادين والطرق على
السواء ، ويقدر المؤرخون عدد الذين قتلوا في تلك المذبحة زهاء عشرة آلاف .

وبعد أن انتهى الصليبيون من هذه المذبحة الفظيعة شرعوا يرتكبون أخط
ضروب الرذائل ، ثم زحفوا على معرة النعمان^(١) إحدى مدن الشام الزاهرة ،
فاستولوا عليها عنوة وذبحوا ١٠٠ ألف من سكانها ، فسالت الدماء في الشوارع
كالأنهر ، ثم استعرض بوهيموند أسراه . ويقول ميلز : « إنه استبقى الجميلات
والشبان الأقوياء لكيما يبيعهم في أسواق الرقيق ، وأمر بذبح الشيوخ والأطفال
على مذبح القسوة والنذالة »^(٢) . وفي معرة النعمان أقدم الصليبيون على أكل

(١) سقط رأس الفيلسوف العربي المشهور أبي العلاء المعري .

(٢) ج ٥ ص ١٧٩ .

اللحوم البشرية ، حتى يقال إنها كانت تباع علناً في معسكر المسيحيين الذين زحفوا على القدس وفتحوها عنوة ؛ وقد ذكر ميشو تفصيل تلك المذبحة بقوله : « كان المسلمون يذبجون ذبح الأنعام في الشوارع والمنازل ، ولم يجد أهل المدينة محلاً أميناً يعتصمون به ، فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار ، وازدحم البعض الآخر في القصور والحصون والمساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك إخفاء أنفسهم من متصيديهم ، فحاصر الصليبيون جامع عمر — الذي اعتصم فيه المسلمون — وجددوا تلك المناظر الوحشية التي تعد وصمة في جبين فرسان التيتون إذ هم الجنود على الهاربين وأعملوا السيف في رقابهم من غير مأسفة ولا رحمة ، ولم يكن يسمع في تلك الساعة الرهيبة غير أنين الجرحى وحسرة الموتى ؛ كذلك وطثوا بجيولهم الجثث المكدسة في أثناء مطاردة الهاربين . ويقول « ريموند دى اكيلس Raymond D' Agiles » الذي شهد تلك الموقعة : كانت الدماء قد وصلت في رواق المسجد إلى الركب ^(١) .

الاستيلاء على
القدس
مذبحة الصليبيين
٢٣ شعبان
٤٩٢ هـ
١٥ تموز
١٠٩٩ م

— ١٠٦٣ —
١١١٠ م

ولم يكف الصليبيون عن السفك إلا عند ما تقدموا إلى الله بالابتهال والشكر على نجاحهم ، ولكنهم ما كادوا ينتهون من صلاتهم حتى واصلوا الفتك والقتل مرة أخرى ، « وذبحوا في هذه المرة جميع من أبقوا على حياتهم رجاء أن ينالوا منهم الغدية ، وقد اضطر بعض السكان إلى إلقاء نفسه من أعلى الحصون والمنازل كما أحرق الصليبيون البعض حياً ، ثم جاءوا بالذين كانوا قد لاذوا بالفرار ووضعهم على جثث الموتى المكدسة ، وأخذوا يمثلون بهم أشنع تمثيل ، ولم تكن تجدى في ذلك الموقف الدامى دموع النساء ولا صراخ الأطفال ، ولا منظر البلد

(١) كتب الصليبيون إلى البابا يهنئونه بفتح بيت المقدس بقولهم : « إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا فثق أنه في إيوان سليمان ومعبدته كانت خيلنا تحوض في بحر من دماء المشرقين إلى ركبتيها » . (المعرب)

الذى صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه ، فكل هذه المناظر المثيرة للرحمة والعطف لم تكن لتلين قلوبهم القاسية ! »^(١)

ويقول مؤرخ آخر : « كان الصليبيون قد صمموا فيما بينهم على ألا يظهرُوا عطفًا أو رحمة نحو المسلمين ، ولهذا كانوا يسوقونهم إلى الميادين العامة وينكلون بهم شر تشكيل دون أن يبتقوا على أحد ؛ فكانوا يذبحون النساء والأطفال والبنات والأولاد على حد سواء ، حتى أصبحت ميادين القدس وشوارعها مملأة بالجثث وأشلاء الأطفال من غير ما شفقة ولا رحمة^(٢) » ، وعلى هذا النحو هلك في تلك المدينة وحدها زهاء سبعين ألفًا .

ولأجل أن يشبع الصليبيون شهواتهم أبقوا على حياة اليهود إلى وقت آخر حتى يعدوا لهم مصيرًا أكثر هولًا وأشد رعبًا ، فساقوم جماعات ووجدانا إلى كنائسهم وأشعلوا فيهم النار . ويقول السيو ميشو : « لقد وصف المؤرخون المسيحيون المعاصرون تلك المناظر المريعة برابطة جاش وثبات جنان نادري المثال ، حتى إنهم في أشد الرقائع هولًا لم يسمحوا للشعور أو الوجدان بالتغلب على الحقد الدفين الذى يستعر في قلوبهم ، ولم تظهر منهم أية عاطفة إنسانية نحو هؤلاء المنكودى الحظ » .

وبعد أن فتح الصليبيون بيت المقدس انتخبوا كودفرى ملكا عليها ، ولكن أخاه بلديون خلفه بعد سنة ، وشرع يحاصر « قيصرية » التى سلمت بعد مقاومة شديدة بشروط مرضية ففتحت أبوابها للمحاصرين ، غير أن الفرنج عندما دخلوا المدينة لم يراعوا حرمة اليهود وذبحوا السكان الآمنين من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ وقد لاقت طرابلس وصور وصيدا نفس المصير ، وكانت المدن الواقعة على ساحل البحر في تلك الأثناء قد بلغت حد العظمة والازدهار . ويصف « خسرو »

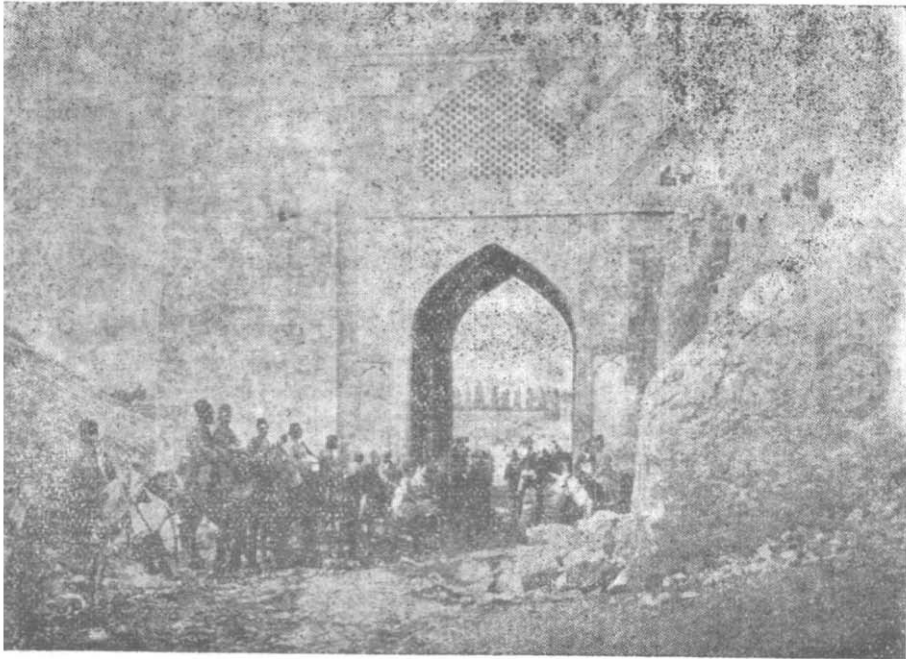
(١) السيو ميشو (ج ١ ص ٢٣٩) .

(٢) ميلز ج ١ ص ٢٧٨ . ويضيف السيو ميشو إلى ذلك قوله : « إن تلك المذابح

استمرت أسبوعًا وأن من بنى جبا عومل معاملة الأرقاء » .

بلدة طرابلس : « بأنها مدينة امتلأت ضواحيها وأعمالها بسنابل الخنطة المتأوجة ، والكروم الباسمة ، ومزارع السكر اليانعة ، والحدائق الوارفة ذات الأشجار المثقلة بالبرتقال والليمون وشتى الفواكه » ، وكانت المدينة في حد ذاتها بائنة حد البهاء أهله بالسكان ومزدحمة بالمنازل الفخمة ، والحوانيت التي كانت تبدو كأنها القصور الشاحخة ، والأسواق الزاخرة بشتى السلع ؛ وكان يتوسط الميادين العامة والشوارع الفسيحة نوافير جميلة تنبثق منها المياه المتساقط كاللجين ؛ أما جوامعها فكانت آية في الروعة والإبداع الهندسى ، كذلك كان في المدينة مكتبة زاخرة بالكتب العلمية والأدبية ، وكلية فخمة ، ومعمل للورق يضاهى معامل سمرقند . وفي سنة (١٠١٩ م) حاصرها الصليبيون بقيادة « تانكريد » يساعده أسطول ييزا من جهة البحر ، فدافع المحصورون دفاع الأبطال ، وقاوموا الأعداء مدى حين ،

نهب طرابلس



الباب الواقع على طريق شيراز

ولكن المحاصرين انقضوا عليهم أخيراً ، وأعملوا السيف في رقابهم ، وأحرقوا المكتبة العامة والكلية والمصنع .

وعلى هذا النحو انتقلت فلسطين وجزء من الشام إلى أيدي الفرنج الذين أسسوا فيها النظام الإقطاعي الذي كان شائعاً في أوروبا وقتئذ ؛ فأنحط المسلمون إلى دركات الرق والعبودية ، وحلت المحاكم الاستبدادية محل المحاكم القضائية ، وعرض رجالها ونساؤها مقيدين في الأصفاد في الشوارع والأسواق كما كان متبعاً في أوروبا . وقد زار الأمير أسامة بيت المقدس بعد تلك الموقعة ببضع سنوات ، وافتدى بعض هؤلاء المساكين ، ويظهر من وصف أحد المؤرخين المسيحيين أن الصليبيين البرابرة كانوا قد حرّموا عاطفة الشفقة والحنان .